السيد جمال الدين الأفغانى

أستاذ الوحدة الاسلامية

الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

تمهيد تاريخى

كان السيد جمال الدين الأفغانى أستاذ « الوحدة الإسلامية »، الذى أقامها مذهباً ، وأوضحها منهجاً ، وخلفها فى العقول وفى القلوب عقيدة اجتماعية وفكرة سياسية لها أشياع وأتباع ، فتردد صداها فى كل مصر من أمصار العربية ، وظهر أثرها فى كل قطر من الأقطار الإسلامية ، حتى أصبح اسم ذلك المصلح العظيم لا يذكر إلا مقروناً بالدعوة لتلك الوحدة ، مميزاً بالجهاد فى ميدان هذه الفكرة .

كان جمال الدين الأفغانى أستاذ « الوحدة الإسلامية » الذى رفع لواءها ، على أنه لم يكن أول من فكر فيها أو اقترح الرأى بها ، فهم يقولون إن صلاح الدين الأيوبى قد دعا هذه الدعوة ، وأراد أن يجمع عليها دول الإسلام وولاياته عندما رأى دول الصليب قد تجمعت واحتشدت لتتخطف مجد الهلال من كل جانب ، وعلى أى حال فقد طويت دعوة صلاح الدين بطروفها وملابساتها ، وانتهت حملة الصليب على الهلال إلى غمرة شاملة ، قضاها الشرق العربى مخدور الأعصاب ، مجزور الأسباب ، مهدوم الكيان والبنيان ، بعد أن خذلته أمراض الفرقة ، وفرقته أغراض الطمع ، وقتله الجمود والخمود ، فكان له ماض وكأنه لا يمت إليه ، وكان له حاضر ولكنه لا ينتفع به ، وكان أمامه مستقبل ولكنه ليس له .

هذه حقيقة لم يختلف فى تقريرها أحد من الباحثين الذين عنوا بشؤون الشرق واهتموا بتشخيص دائه المزمن سواء أكانوا من الغربيين أم من الشرقيين ، وإن اختلفوا فى التعليل لهذه الحقيقة والتماس الأسباب التى أدت إليها ، على أن هنالك إلى جانب هذه الحقيقة حقيقة أخرى لا بد أن نذكرها فى المقام ، وهى التى شهد بها البحاثة الاجتماعى المعروف الدكتور جوستاف لوبون إذ يقول فى هذا الصدد : « ولئن كانت دولة العرب لم تعد ترى إلا فى كتب التاريخ فإن المعنى الدينى الذى هو أساس تلك الدولة قد ظل حياً دائماً ، وبقى ظل محمد « صلى الله عليه وسلم » من أعماق قبره يسود تلك الملايين العديدة الساكنة أفريقية وآسيا الترامية بين مراكش والصين والمنثورة بين البحر الأبيض وخط الاستواء ... » .

غير أن هذا المعنى الذى يشير إليه جوستاف لوبون ، والذى بقى حياً فى قلوب أمم الشرق ، وظل يربط نفوسهم برباط الوحدة ، استحال آخر الأمر فى قلوبهم وفى نفوسهم وفى تفكيرهم إلى وضع معكوس مقلوب عما كان عليه آباؤهم من قبل ، وليس لباساً ملفقاً من الأوهام والأضاليل والترهات ، أجل ! فقد كان الدين فى قلوب الآباء قوة تتدفق بالحياة والحركة فأصبح فى قلوب الأبناء إشارة ضعف وجمود ، وكان فى نفوس السابقين مظهر عزة وفخار ، فصار فى نفوس أولئك اللاحقين دلالة ذلة وانكسار ، وكان فى تفكير السلف صلة تصلهم بما فى الدنيا من أرقى معانى الحرية والاستقلال فانعكس فى تفكير ذلك الخلف إلى بلادة تفيض بالخضوع والاستسلام ، حتى كنت لا تلمس فى ذلك الجسم الطويل الممدود فى أفريقية وآسيا من معانى الدين إلا الحسرة على مجد كان لهم ، والبكاء على سلطان ضاع من أيديهم ، وإنهم لفى يأس من رجعة ذلك إليهم ، كأن ما ذهب قد ذهبت الأيام بحقيقته ، فكان هذا مما فتح الباب لبعض المستشرقين فى اتهام الدين الإسلامى فى طبيعته وتعاليمه ، فقرروا أنه هو الذى أفضى بالشعوب الإسلامية فى الشرق إلى ما هم فيه من الانحطاط ، وأن عقيدة القضاء والقدر هى التى أدت بهم إلى البلادة والخمول والاستسلام ، ومن العجيب أن هذه التهمة الباطلة المفرضة قد راجت فى الغرب ، وجازت على بعض أبناء الشرق ، على الرغم من أنها ظاهرة البطلان ، واضحة البهتان ...

كانت تركيا تحمل لواء الخلافة الإسلامية ، وتبسط جناح السيادة على أقطار الشرق العربى فيما تحكم من الأقطار والأمارات ، ولكن تركيا كانت تعنى بأملاكها فى أوربا أكثر مما تعنى بشؤون الشرق العربى وشؤون أقطاره ، ولم تكن لها صلات صحيحة تقوم على المودة بين أبناء العروبة ، ولم تكن ترعى حقوق الرابطة الإسلامية كما يجب أن تكون الرعاية ، بل لقد صارت سياستها فى الشرق آخر الأمر مثلا شروداً فى الظلم وخنق روح القومية

بين أبناء الأقطار العربية ، والاستبداد فى القضاء على كل مظهر من مظاهر الاستقلال والتعاون بينهم ، وعند ما تنمر الاستعمار الأوربى وأخذ يتطلع لافتراس ممتلكات تركيا أو الشيخ المريض كما كانوا يقولون ، لم تبادر تلك الإمبراطورية المتداعية إلى تدارك هذا الأمر برأب الصدع وإقامة جبهة إسلامية قوية فى الشرق لمواجهة هذا الخطر ، ولقد أراد السلطان عبد الحميد أن يحقق هذه الغاية استجابة لدعوة السيد جمال الدين ، كما سنشرح ذلك فيما بعد ، ولكنه أخفق ، لأنه أراد أن يقيم هذه الوحدة لا من حول تركيا ولا من حول الفكرة الإسلامية ، بل من حول شخصه هو ، فالتاث عليه الأمر ، وجرت الأحوال فى طريقها المحتوم ، وانطلقت الدولة فى سياسة الأقطار العربية على أساليبها الفاسدة ، وخطتها الجامدة ، فكان ذلك مما عجّل بتقلص ظلها عن الشرق ، فاحتل الفرنسيون تونس فى سنة ١٨٨١ ، واحتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، ثم أغارت إيطاليا على طرابلس فى سنة ١٩١١ ، ثم وثبت فرنسا مرة أخرى فاستولت على المغرب فى سنة ١٩١٢ ، ثم قامت الحرب الماضية فكانت نهايتها نهاية تركيا فى حكم الشرق العربى جميعه ...

الهزة الأولى ...

ولعل حملة نابليون على مصر كانت أول هزة هزت أقطار الشرق العربى ، وحركت من وجدانات أبنائه ، فإن تلك الحملة كانت كما يقول « كلوت بك » أشبه شىء بصاعقة هوت من السماء على الشرق ، فأيقظته منزعجاً من سباته الطويل العميق ، إذ كانت الأساليب العتيقة فيه قد بقيت إلى ذلك العهد على حالها لم يتناولها تغيير ولا تبديل ، وكانت الدولة العثمانية قائمة بحروب طويلة ضد الروسيا والنمسا ، ففازت بالنصر تارة وباءت بالخذلان أخرى ، لكن هذه الحروب لم تغير شيئاً من أفكارها العتيقة ، وكانت الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية تعتقد أنها بعيدة المنال على من يرومها بفتح أو قهر ، وأنه لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض دولة تبلغ مبلغها عزاً ومنعة لأن ذكرى الفتوحات القديمة كانت لا تزال عالقة بأذهانهم .. »

لهذا كله كانت تلك الحملة هزة هزت أعطاف الشرق العربى ، واتجهت به وجهة جديدة مغايرة ، ولم تكن تلك الحملة بما يكتنفها من الظروف والملابسات موجهة إلى مصر فحسب ، ولكنها كانت تريد أن تتخذ من ذلك باباً إلى أقطار الشرق جميعها ، وإذا كانت تلك الحملة قد فشلت من الناحية الحربية والسياسية ، فإنها لاشك قد نجحت من الناحية العلمية والفكرية ، وكانت الاتجاهات التى اتجه إليها نابليون فى إنشاء المجامع النيابية والوطنية ، مما فتح الأعين وهز النفوس بالتشوق إلى وضع جديد من أوضاع الحكم يقوم على الشورى والرأى ، وأكثر من ذلك فقد وقف أبناء الشرق بواسطة هذه الحملة على ما دعت إليه الثورة الفرنسية من مبادئ سياسية وغايات اجتماعية فى تحقيق العدالة والإخاء والمساواة ، فكان لهذا كله أثر فى الأفكار والميول ظهر فيما بعد ..

محمد على والوحدة ..

وتم الأمر لمحمد على باشا فى حكم مصر والاستقلال بها عن الدولة العثمانية ، وقد كانت لذلك العاهل العظيم مطامع وآمال كبار فى إقامة إمبراطورية عربية شرقية تقوم على أطلال الإمبراطورية العثمانية المتداعية ، أو على الأقل تقوم تجاهها فى الشرق حفظاً للتوازن الذى يجب أن يقوم أمام الغرب الطامع ؛ والتى كانت الحملة الفرنسية نية من نياته المتحفزة المتنمرة ، وكان محمد على يرى أن تحقيق آماله هذه منوط بشيئين أساسيين : سطوة السيف ، وقوة العلم ، ومن ثم فقد أرسل بجيوشه الفتية تحت قيادة ابنه ابراهيم تحقق هذه الغاية فى ميادين الحرب ، كما أرسل بالبعوث العلمية إلى أوربا لتكون سنادة لهذه الغاية ، وتدعيما لسلطان السيف فيما يطويه من الممالك والأمصار ، ولقد سئل إبراهيم باشا عند ما شدد الحصار على عكا وأوشك حصنها أن ينهار أمام قواته : إلى أى مدى ستقف فى فتوحك إذا ما تم لك الاستيلاء على عكا ؟ فقال : إلى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم وإياهم باللسان العربى ، ومما يؤثر عنه أنه كان يقول : أنا لست تركياً فإنى جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وعبرت من دمى وجملته دماً عربياً ..

إذن كان محمد على يقصد إلى إقامة إمبراطورية تقف حدودها

عند ما يتكلم الناس ويتفاهمون باللسان العربي ، وإذن كان ذلك الرجل العظيم يرمي إلى هدف معلوم مفهوم ، وهو إقامة وحدة بين الأقطار العربية بحد السيف وسلطان القوة ، على نحو الإمبراطورية العظيمة التي أقامها الفتح الإسلامي ، والإمبراطورية الممتدة التي أقامها الفتح العثماني ، فهو لم يتنكب الوضع التاريخي السابق الذي اتخذه مثالا وقدوة في تحقيق مطامعه ، وقد كاد الأمر يتم له ، لولا يقظة الدول الأوربية وتألبها عليه ، إذ تبينت حقيقة مطامعه وخطر قيام هذه الإمبراطورية العربية على أطماعها في الشرق ، فتآمرت على تحطيم أسطوله في معركة « نافارين » ووقفت إلى جانب تركيا تتحداه في مطامعه ، وتحتم عليه أن يعود أدراجه ، فاستطاعت بذلك أن تغير وجه التاريخ ، وأن تقلب أطماع محمد علي رأساً على عقب ، وأن تقضي على آمال ذلك البطل العظيم في إقامة وحدة عربية أو على التحقيق في تأسيس إمبراطورية عربية إسلامية . .

وأنت في الواقع لا تستطيع أن تجد فرقاً يذكر في تقدير محمد علي بين العربية والإسلامية ، فإن الرجل كان يتكلم بقوة السيف ، والذي يتكلم بقوة السيف لا يعنيه غالباً البحث في الألفاظ والاهتمام بوضع الاصطلاحات والتدقيق في تحديد الفرق بينها ، كما يصنع الذين يجلسون على المكاتب فيرسمون الخطط ، ويحسبون الخطوات ، ويهتمون في حسابهم بالأصفار والفروق بين الأصفار ، ويقدرون أن إنشاء الأمم وحياة الشعوب نظرية هندسية يقدر قياسها بالدرجة وأجزاء الدرجة ، إنما كان قصد محمد علي كما قلنا إلى تأسيس إمبراطورية تقوم الوحدة بين أجزائها وعناصرها على الوضع السابق في قيام الإمبراطورية العربية والإمبراطورية العثمانية ، وأنت حرفي نعتها بالعربية أو بالإسلامية أو بالعلوية ، فهذه كلها ألفاظ مترادفة تؤدي إلى مدلول واحد ، وغاية ما كان ينظر إليه محمد علي هو وحدة اللسان العربي ، وكأنه كان يريد بهذا إشعار الأقطار التي تدخل حوزته بأنه عربي لأنه يتكلم هذا اللسان ، حتى لا يشعروا بأن حكمه عليهم صورة أخرى من الحكم العثماني ، وأنه فرع من تلك الشجرة فيؤثروا أن يستمروا على العيش في ظلال الأصل بدل الفرع ما دام الوضع هو هو لم يتغير . .

اسماعيل والوحدة الافريقية

ودالت دولة محمد علي ، أو قل دالت أطماعه في إقامة الإمبراطورية التي كان يريدها ، فلما كانت أيام اسماعيل باشا ، كانت في نفس ذلك الخديوي نزعة طموح من نزعات محمد علي ، وكانت تتخلله رغبة في الفتح ، ولكنه كان يقف في هذه الرغبة عند إقامة وحدة أفريقية تشمل حوض نهر النيل من المنبع إلى المصب ، وما يتصل بذلك من الأقطار القريبة والأمصار التي لا بد منها ، وقد أرسل بعض الحملات الحربية في سبيل تحقيق هذه الرغبة ، وقد استطاع اسماعيل أن يشغل الأذهان بعض الوقت بمسألة « الوحدة الإفريقية » ، وأعاد سيرة محمد علي في بعث البعوث العلمية ، واندفع في الأخذ بمظاهر المدنية الأوربية حتى يكون لمصر الصدارة في ذلك بين الأقطار المجاورة ، ولكن شتان ما بين محمد علي واسماعيل ، فقد كان محمد علي يجند جميع مرافق البلاد لخدمة جيوشه والإنفاق عليها ، وكانت هذه الجيوش تجلب له ما تجلب من المغانم والأسلاب . ولكن إسماعيل كان يستدين وينفق على حملاته ، وكانت هذه الحملات تأخذ دائماً ولا تعطي شيئاً ، وجرت الأمور معكوسة . وأثقلت الديون كاهل إسماعيل ، وذهبت فكرة « الوحدة الإفريقية » كما يذهب أمس من اليوم ، ومضت وكأنها لم تكن ...

فآمال محمد علي ، وآمال اسماعيل من بعده إنما كانت هزات سياسية ، ونزعات إلى التآلف والوحدة في ظل القوة والفتح والاستعمار ، فانتهت بانتهاء الظروف التي لابستها ، ولم يكن لها أثر إيجابي في النفوس ، ولم تتحدر إلى العقول والقلوب عقيدة لها أشياع وأتباع ، ولكنها خلفت وراءها أثرين متقابلين ، وتيارين متضادين ، أحدهما في الشرق ، وهو تنبه الأذهان ، وتفتح الأفهام ، والطموح إلى حياة المجد والاستقلال ، والتميز الشخصي بين ممالك الإمبراطورية العثمانية ، وثانيهما في الغرب ، وهو تنبه المطامع ويقظة المآرب في نفوس الدول الغربية المتحفزة لوضع يدها على تركة الشيخ المريض ، والقيام مقام الدولة العثمانية المتداعية على أقطارها في الشرق ...

« للكلام بقية »

محمد فريد أبو حديد